لا إكراه في الدين

حدّثه محمد الصغير الأحد ٢٨ ذي الحجة ١٤٤٢

رغم كون ربنا عز وجل قال لا إكراه في الدين, إلا إن البعض يعتقد أنه يمكن إسلام المرء تحت ضغط إكراه المجتمع, أو بعبارة أخرى يمكن أن يسلم المرء تقليداً للمجتمع الذي تربى فيه.

في هذه السطور سوف نناقش شرط الإسلام طواعية دون إكراه أو تأثير, وذلك من خلال المحاور التالية:

- لا إكراه في الدين
- لا تقليد في الدين
- لا دين بالميراث
- الرد على المستشرقين

لا إكراه في الدين

لقد رأينا سابقا أن الإسلام هو قرار بأن يسلم المرء نفسه لله تعالى, هذا القرار لكي يكون مقبولا عند اللّه سبحانه, لابد من أن يتخذه المرء بكامل إرادته, دون أي إكراه, سواء كان بدنياً أو معنويا, والأدلة على ذلك كثيرة منها:

١- قوله جل وعلا:

< لا إِكْرَاهَ فِي الدين قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغي فَمَن يَكفُر بِالطّاغوتِ وَيُؤمِن بِاللَّهِ فَقَدِ استَمسَكَ بِالعُروَةِ الوُثقى لَا انفِصامَ لَها وَاللَّهُ سَميعٌ عَليمٌ > [البقرة: ٢٥٦]

وجه الاستدلال, صريح الآية التي نصت أنه لا يمكن أن يكون الدين بالإكراه.

فقوله لا إكراه في الدين قاعدة ثابتة, وعللها ربنا سبحانه وتعالى بأنه قد تبين الرشد من الغي, فالمرء يمكنه أن يميز الرشد وهو عبادة الله عز وجل وحده خالقه ورازقه, كما يمكنه أن يدرك أن عبادة غير الله أنها هي الغي, كل الغي, لأن غير الله لا يملك نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

ب- قوله سبحانه:

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهدِيَهُ يَشرَح صَدرَهُ لِلإِسلامِ وَمَن يُرِد أَن يُضِلَّهُ يَجعَل صَدرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجعَلُ اللَّهُ الرِّجسَ عَلَى الَّذينَ لا يُؤمِنونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]

وجه الاستدلال أن من لم يشرح الله صدره للإسلام, لم يهده الله, ومن ثم لم يسلم, ولو ادعى الإسلام مكرها.

ج- حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه:

عن أبي ظبيان حصين بن جندب, قال: سمعت أسامة بن زيد يحدث, قال:

«بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقة, من جهينة, قال: فصبحناهم, فقاتلناهم, فكان منهم رجل, إذا أقبل القوم كان من أشدهم علينا, وإذا أدبروا كان حاميتهم, قال: فغشيته, أنا ورجل من

الأنصار, قال: فلما غشيناه, قال: لا إله إلا الله, فكف عنه الأنصاري, وقتلته, فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم, فقال: يا أسامة, أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ قال: قلت: يا رسول الله, إنما كان متعوذا من القتل, فكررها علي, حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ».

الحديث برواياته وتخريجه ورواته تجده هنا.

الحديث صحيح متفق على صحته, ووجه الاستدلال فيه أنه لو ثبت أن الرجل كان متعوذا, لما عاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة, ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ألا شققت عن قلبه

ولم يقل وإن كان متعوذاً.

د- قوله سبحانه وتعالى:

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤمِنونَ حَتّى يُحَكِّموكَ فيما شَجَرَ بَينَهُم ثُمَّ لا يَجِدوا في أَنفُسِهِم حَرَجًا مِمّا قَضَيتَ وَيُسَلِّموا تَسليمًا ﴾[النساء: ٦٥]

وجه الاستدلال أن الله أقسم بنفسه أن المرء لا يكون مسلما حتى يسلم تسليما تاما بقلبه لحكم الله ولا يجد حرجا في نفسه منه, ومعلوم أن المكره على الدين كاره في نفسه للدين, وبالتالي فهو غير مؤمن .

والعجب كل العجب أن يتصور إنسان أن المرء يصح إسلامه، وهو في قلبه يكره الإسلام، حيث أنه لم يسلم قلبه لله، ومن ثم هو مشرك لم يصح إسلامه بعد.

فالخلاصة إذن أن الدين الذي يحاسب عليه هو ما كان بإرادة المرء نفسه دون أي إكراه، فكما لا يكفر من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، لا يسلم من أكره على الإسلام وقلبه مريض بالكفر والشرك.

لا تقليد في الدين

التقليد هو الاتباع دون دليل أو قناعة، هو صورة من صور الإكراه اللاشعوري، الذي يمارس على المقلِد، فالمقلِد فاقد الإرادة والاختيار، ويتبع دون قناعة من يقلده، لذلك إسلام المقلد غير مقبول عند الله والدليل هو:

عن فاطمة بنت المنذر، عن أسماء بنت أبي بكر الصديق، أنها قالت:

«أتيت عائشة، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، حين خسفت الشمس، فإذا الناس قيام يصلون، وإذا هي قائمة تصلي، فقلت: ما للناس؟ فأشارت بيدها نحو السماء، وقالت: سبحان الله، فقلت: آية؟ فأشارت براسها أن نعم، قالت: فقمت حتى تجلاني الغشي، وجعلت أصب فوق راسي الماء، فحمد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأثنى عليه، ثم قال: ما من شيء كنت لم أره إلا وقد رأيته في مقامي هذا، حتى الجنة والنار، ولقد أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور مثل، أو قريبا من فتنة الدجال - لا أدري أيتهما قالت أسماء - يؤتى أحدكم فيقال له: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن، أو الموقن - لا أدري أي ذلك قالت أسماء - فيقول: هو محمد رسول الله، جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا وآمنا واتبعنا، فيقال له: نم صالحا، قد علمنا إن كنت لمؤمنا، وأما المنافق، أو المرتاب - لا أدري أيتهما قالت أسماء - فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته».

الحديث ورواياته وطرقه ورواته تجده هنا

الحديث صحيح متفق على صحته, ووجه الاستدلال فيه أن المؤمن موقن, بنى إيمانه على البينات والهدى, فآمن لذلك, أما غير المؤمن فهو الذي يردد ما يقوله الناس, دون قناعة منه, فلا ينجيه, مثلا أن يقول سمعت الناس تقول هو محمد بن عبد اللّه, فقلت هو محمد بن عبد اللّه, لأن لم يبن إيمانه على يقين.

لذلك لا يمكن أن نبني ديننا على التقليد.

لا دين بالميراث

إن حديث أسماء السابق يبين أنه لا يمكننا أن نرث الإسلام كما يتصور البعض, بل يجب أن يكون قناعة, صاحبها بناها على البينات والهدى, وهذا مخالف لما يعتقده أغلب الناس اليوم, حيث يرون أنهم مسلمون لكونهم ورثوا الإسلام, ويستدلون على ذلك بحديث الفطرة وأن آباءهم مسلمون والحقيقة أن الفطرة ليست كل الإسلام وإنما هي إقرار لاشعوري بأن لا إله إلا اللّه لقول الحق سبحانه:

‹فَأَقِم وَجهَكَ لِلدّينِ حَنيفًا فِطرَتَ اللَّهِۚ الَّتي فَطَرَ النّاسَ عَلَيها لا تَبديلَ لِخَلقِ اللَّهِۚ ذٰلِكَ الدّينُ القَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكثَرَ النّاسِ لا يَعلَمونَ› [الروم: ٣٠]

وتبقى شهادة أن محمدا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم, التي لا يصح الإسلام بدونها, يجب أن تكون مبنية على البينات والهدى, وإلا لما صح الإسلام كما بين الحديث السابق.

حتى تتضح هذه النقطة أكثر, أقول إن الركن الأول من الإسلام هو شهادة أن لا إله إلا الله, وشهادة أن محمدا رسول الله, الفطرة التي فطر الناس عليها, هي إقرار لاشعوري بأن لا إله إلا الله, وليست شهادة فالمرء حين يولد لا يعلم شيئا.

بينما ليكون مسلما إسلاما صحيحا عليه أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن يشهد أن محمدا رسول الله, وأن تكون شهادته مبنية على أدلة واضحة, وليست مجرد تقليد كما بين الحديث, هذا يعني أنه إذا سُئل عن الدليل الذي يثبت أن محمدا رسول الله, كانت عنده إجابة واضحة وقاطعة وشافية.

الرد على المستشرقين

يقول بعض المستشرقين أن الإسلام انتشر بحد السيف, وأن من دخل فيه إنما كان مكرها, وتبعهم في دعواهم من يجهلون الإسلام في ذلك, وقد استدلوا جميعا بقوله صلى الله عليه وسلم:

أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلا إله الله

الحديث وطرقه ورواته تجده هنا.

والحديث صحيح, ولكنه لا يعني ما قالوا, فإذا نظرنا إلى عمل النبي صلى الله عليه وسلم وهو من قال الحديث, نجده قاتل الكفار حتى يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون كما أمره ربه في قوله:

< قاتِلُوا الَّذينَ لا يُؤمِنونَ بِاللَّهِ وَلا بِاليَومِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسولُهُ وَلا يَدينونَ دينَ الحَقِّ مِنَ الَّذينَ أوتُوا الكِتابَ حَتّى يُعطُوا الجِزيَةَ عَن يَدٍ وَهُم صاغِرونَ > [التوبة: ٢٩]

كما نجده في التعامل مع الفرد الكافر لا يلزمه باتباع الإسلام, ويأمنه إن هو استجار به, كما أمره ربه في قوله:

﴿ وَإِن أَحَدٌ مِنَ المُشرِكينَ استَجارَكَ فَأَجِرهُ حَتّى يَسمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبلِغهُ مَأمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُم قَومٌ لا يَعلَمونَ ﴾[التوبة: ٦]

فالحديث إذاً لا يتحدث عن الإكراه في الدين, وإنما عن فرض هيمنة الإسلام على الأرض كلها, كما أخبر ربنا عز وجل في قوله:

﴿ وَقاتِلوهُم حَتّى لا تَكونَ فِتنَةٌ وَيَكونَ الدّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوا فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعمَلونَ بَصيرٌ ﴾ [الأنفال: ٣٩]

ولقد دخلت الشعوب المفتوحة بلادها في الإسلام طواعية, لِما رأت من عدل الإسلام, وسمو المسلمين, كما بينا في المقارنة بين الفتح الإسلامي والاستعمار الأوروبي، ومن ثم فإن مقولة أن الإسلام فرض بالسيف هي مغالطة واضحة لمن جمع النصوص في المسألة.